ارتياد جزيرة العرب

خلاصة لكتاب ممتع به *

محمد عبد الغني حسن

في أوائل القرن السابع عشر الميلادي أو في سنة ١٦٠٩ بالتحديد، كتب موظف في شركة الهند الشرقية يقول في تقرير له: « يجب أن يتوقع المسافر إلى عدن أخطاراً تنتظره، وأموالاً ترتقبه، لأنها مدينة مشحونة بالأحراس والجنود، وليس فيها من التجار إلا قليل. والربح القليل الذي يؤمل من التجارة فيها، لا يوازي الأخطار التي يستهدف لها التاجر. أما مدينة مُخَا اليمنية فهي على صغر حجمها، مركز تجاري أمين لأنها مملوءة بالتجار لا بالجنود».

وكانت عدن قبل ذلك الحين ببضع عشرات من السنين من أملاك الدولة العثمانية. ولكن قيمتها التجارية مع بلاد الهند والجزيرة العربية وأوربا أخذت تتضاءل، حتى انتهى الأمر الى مدينة مخا التي أخذت تحتل مكانها وتنزع عنها قديم شهرتها.

وكان يحكم عدن من قِبَل العثمانيين رجل يوناني غير مسلم، اتخذه حاكم صنعاء صنيعة له وعهد إليه حكم هذه المدينة العسكرية.

وفي سنة ١٦٠٩ أيضاً أرسلت شركة الهند الشرقية بعثة الى عدن، على رأسها « اسكندر شاربي» ومعه رجل من الذين يجيدون الضرب في الأرض للتجارة وعقد الصفقات والترويج للسلع حتى تنفق. هذا الرجل اسمه « جون جوردان » من مقاطعة دورست بانجلترة.

لقي هذان الرجلان الطامعان في ثروة البلاد العربية عنتاً وإرهاقاً، وخاصة في عدن تلك المدينة التي ليس فيها جرعة من الماء سائغة لظمآن، وليس فيها الا الصخور الربد والحجارة الدُّكن.

ولكنهما لم يعرفا وهناً، ولم يدعا لليأس سبيلاً الى قلبيهما. فقد تعرّفا الى عدن

(*) L'Exploration de L'Arabie — Par : R. H. Kiernan—Paris 1938

وصنعاء وعدنا . بل تعرَّفا الى كثير من بلاد اليمن . ولم يجد « شاربي » سوقاً للسلع الكثيرة التي جلبها معه من الهند ، وإذا وجد السوق فانه لا يصادف إلاّ الثمن البخس والدراهم المعدودة . فعاد الى الهند تاركاً زميله المغامر الجريء «جوردان» يسير في مناكب اليمن ...

وبعثت شركة الهند الشرقية « السير هنري ميدلتون » ليتم ما عجز عن اتمامه سابقه « شاربي » . فجاء الرجل ووجد في « جوردان » يده وعدته . وكان في « جوردان » صلابة وعناد لا يخضعان لقساوة الظروف وحرج المواقف .

وما كانت المنافسة بين الانجليز والهولنديين أخذت سبيلها . وخاصة بعد القضاء على نفوذ البرتغال ، وانقلبت المنافسة التجارية الى عداوة مبيتة . ولم يكن غير أطراف الأسنة مركب بين المتنافسين . ولم يكن للمضطرين الا ركوبها .

وجاء أسطول هولندي صغير يقوده « هدريك جاروون » . وكان في استطاعة أسطول « جوردان » الضئيل أن يتقي اللقاء بالحرب . ولكنه آثر الموت الذي ليس منه بد ، ووجد عاراً لنفسه ولبلاده أن يموت جباناً ...

وانتهت المعركة بقتل « جوردان » ، وهو يحمل علم بلاده في يده — بعد ما أصدر أمراً بالتسليم حتى لا يكون مصير بعثته الفناء .

***

هذه المعركة البحرية الصغيرة، هي وأخوات لها في خلال القرن السابع عشر ، والنصف الأول من القرن الثامن عشر، لم تكن ارتياداً للجزيرة العربية بالمعنى العلمي الصحيح ، وإنما كانت منافسات تجارية . ولكنها على كل حال كانت الخطوات الأولى في الارتياد لتلك الجزيرة السحيقة الأطراف .

وأول كشف للجزيرة العربية بالمعنى العلمي الحديث ابتدأه الدانمركيون . وهم قوم على قلة عددهم حملوا لواء الارتياد . وما ضرَّهم انهم قليل عددهم ، فالكرام في الدنيا قليل ...

وأول طارق لبلاد العرب على نية الكشف العلمي هو « كارستون نيبوهر » الدانمركي ، الذي أرسلته حكومة بلاده على رأس بعثة أُمدَّت بأسباب البحث والاطلاع الممكنة في عصره . قامت البعثة سنة ١٧٦١ م . وقضت سنة في مصر وشبه جزيرة سيناء . ثم بلغت جدة سنة ١٧٦٢ م ومنها أبحرت الى ميناء في بلاد اليمن يدعى « اللحيَّة » بالحاء والياء المشددة المفتوحة وهاء في آخره[1] . وكان هذا الثغر اليمني هو الهدف الذي ترمي اليه البعثة .

(١) اتفق هذا الاسم العلم الجليل الاب انستاس ماري الكرملي في كتابه « بلوغ المرام في شرح مسك الختام » القاضي المرتضى الذي نشره الاب « ص ٢٧٠ س ١٦ » . وخطأ من يقول ان اسمه لحيا

ومن هناك أبحر رجالها الى « مخا » الحافلة بالتجار وأكبر ميناء لتجارة البن . ولما كان « نيبوهر » غير عالم بالحضارات القديمة ولا متخصص في دراستها فقد اصطحب معه علماً من أعلام هذا العلم اسمه (فون هافن) . وظلت البعثة بين إتهام وإنجاد حتى بلغت صنعاء التي جابها « نيبوهر » شبراً شبراً ، ووصف كل معْلم من معالمها وحيّ من أحيائها . ولقد كان وصفه للحي اليهودي فيها شائقاً .

وبعد أن اقامت البعثة عشرة أيام في صنعاء ، عادت إلى مخا عن طريق الحديدة ومن مخا أقلعت البعثة إلى الهند . وفي العام التالي بقي « نيبوهر » وحيداً بعد وفاة ثلاثة من زملائه فزار عُمان ومواطن أخرى على الخليج الفارسي ، ثم ذهب إلى البصرة فسورية ففلسطين ومنها إلى وطنه بعد غياب أربع سنوات . وطبع نتائج رحلته سنة ١٧٧٢ . ويعد عمله هذا أول وصف لبلاد العرب وخاصة اليمن . وكان وصفه للأماكن المختلفة وصفاً مملوءاً بالدقة ، حتى انه لم يترك لمن جاء بعده من الروّاد مجالاً للوصف الدقيق .

وكان « نيبوهر » منصفاً في حكمه على العرب عارفاً أقدارهم ، فلم تمل به دواعي الهوى في حكمه ، وقد عرفهم عن قرب ، وفهمهم عن تجربة . وقال فيهم في كتابه (١) « إذا كان هناك شعب يقدمه التاريخ مثالاً فريداً للأمانة المصحوبة ببساطة التقاليد ، فانه الشعب العربي بكل تأكيد »

* * *

وبعد مضي أكثر من قرن على بعثة « نيبوهر » ذهب « هالفي » إلى بلاد اليمن سنة ١٨٦٩ فاكتشف مدينة مأرب والكتابة المنقوشة على صخورها . ودخل اقليم نجران الخصيب ، حيث لقي جالية من اليهود في قرية « مخلاف » فأقام بينهم بضعة أسابيع . وفي سنة ١٨٧٠ وصل إلى مدينة « النحاس » التي سميت بهذا الاسم لأن آثارها المنقوشة وجدت على ألواح من هذا المعدن . وعلى بعد ساعتين من شرقي مأرب على سد مأرب المشهور في التاريخ .

ولم ينفرد « هالفي » بكشف مأرب ، ولكنه فتح سبيلاً ممهداً للعالم الأثري النمسوي « جلازر » الذي قام — تحت حماية الأتراك — بزيارة مأرب سنة ١٨٨٩ . ولولا خصومة بين قبيلتي « حاشد » « وبكيل » لأمعن في سيره . ولكنه خشي على نفسه أن يقع ضحية في خلال هذا الخصام . وانتظر الرجل حتى يجد في مصالحة الحيين المحتربين فرصة لاستئناف عمله . وكان ذلك في رحلة ثانية وصل فيها إلى مأرب ، وأقام فيها ثلاثين يوماً جمع خلالها

(١) Voyages à Travers L'Arabie

طائفة كبيرة من النقوش والآثار ، ولكنهُ لم يستطع أن يخترق شرقي مأرب ، فقد كانت دوية ضيقة غير واضحة الأقراب .

وفي سنة ١٨٣٥ استطاع « ويلستد » الذهاب إلى قلب حضرموت ، وما كان ذلك سهلاً ولاميسوراً ، ولكنه كان بزماع الأمر والهم المكنيع كما فعل سويد بن كاهل صاحب القصيدة العينية المشهورة !! وكاد « ويلستد » ينجح في مغامرته لولا أن بعض المخصومات المذهبية في اليمن ، لم تمكن البعثة من انجاز عملها .

* * *

ولمّا كان الحجاز أشهر أقاليم الجزيرة العربية — لما للمدينتين المقدستين من مقام عظيم — فقد قام « فارتيما » الايطالي من دمشق في أوائل القرن السادس عشر . ولعلهُ أول أوربي زار أرض الحجاز . كما كان « يوسف بتس » الديفوني الانجليزي من أوائل الزائرين للحجاز . وهناك آخرون زاروا مكة متخفين أو متظاهرين بالاسلام . وظلّ الحال كذلك إلى أول القرن التاسع عشر . فزير الحجاز — لأول مرة — لغاية علمية محدودة بوساطة « باديا ليبليك » الاسباني الذي تسمى باسم « علي بك » وادعى أنه من أعقاب العباسيين وأنه بقية من بقاياهم الذي وصل إلى جدة سنة ١٨٠٧ . وأدّى فريضة الحج في مكة . وهو أول مرتاد أوربي اخرج للعالم أول صورة دقيقة للمدينة المكرمة واشعائر المسلمين في البيت الحرام . كما كان أول من حدد موقع مكة بعد مشاهدات فلكية متتابعة ، ووصف كل ما يحيط بها من المواقع والبطاح .

ولقد مهد « علي بك » الاسباني طريق إرتياد الحجاز للرحالة « بركهاردت » الذي ولد في « لوزان » وتعلم في سويسرة وأتم تعليمه في جامعتي لندن وكامبريدج . وكان في الفتى صلابة في الخلق ودأب في الدرس ، حتى لقد احتمل الحرمان الأليم والضنى الممض في سبيل دراسته حفظ القرآن ودرس التفسير في أوسع كتبه وأعظم مراجعه ، وتعمق في بحث الشريعة الاسلامية تعمقاً مكنه من أن ترسخ قدمه فيها . وهو الرائد الحقيقي لبلاد الحجاز

واقد مكنته قراءاته الواسعة ومعرفته بحياة العرب وعاداتهم من أن يدخل بلاد الحجاز كمسلم . فنزل جدّة سنة ١٨١٤ حينما تمّ احتلال الوهّابيين للحجاز : وكانت جيوش محمد علي باشا على أهبة التقدم نحو نجد . وزار الطائف وقضى ثلاثة شهور في مكة فحجّ واعتمر وقضى مناسك الحج . وفي سنة ١٨١٥ سافر إلى المدينة بطريق الساحل . وبالرغم من اعتلال صحته ، فقد سجل كل ما رأى وجرب بالدقة التي امتازت بها رحلته إلى مكة . وفي النهاية حينما ألحت عليه العلة — اضطرّ إلى قطع رحلته وعاد إلى القاهرة ، ومات بعد ذلك بعامين .

ومن روّاد «الحجاز» «ريتشارد برتون» الذي كتب رحلته في كتاب لم يسبقه اليه سابق من حيث اتساعه وضبطه . وفي سنة ١٨٧٧ أوفده الخديو اسماعيل ليكشف مناجم الذهب في شمالي الحجاز ؛ بوجد هناك آثاراً ذات قيمة تاريخية وحمل معه خرائط ومصورات

وبعد عشرين عاماً زار المدينتين المقدستين رحل هولندي اسمه «هرجرونيه» وكان عميد الرواد في عصره . وطبع كتابه بالالمانية ولكنه لم ينل من الشهرة ما نال سابقوه . ولعلّ ذلك راجع الى أنه كشف أشياء كانت معروفة لدى جمهور العلماء في زمانه .

وكانت انتصارات ابراهيم باشا في الحجاز سبباً من أسباب نفوذ الرحالين إلى أواسط الجزيرة العربية . فقد دخل عدد من الضباط الأجانب في الجيش المصري ، ولكنهم لم يتركوا لنا أثراً من مشاهداتهم .

ولكن حكومة الهند كانت راغبة في القضاء على القرصنة في الخليج الفارسي ؛ ومتطلعة إلى الحصول على معلومات صحيحة عن مركز البلاد العربية . فأرسلت الضابط (سادلير) مندوباً عنها لدى ابراهيم باشا الذي كان والياً على البلاد العربية ؛ والذي تقبله بقبول حسن ؛ وكان أول رحالة أوربي اخترق بلاد العرب من بحر إلى بحر . ولو أن النتائج السياسية لرحلته كانت هباء ، إلاّ أنها كانت ذات قيمة جغرافية كبيرة . فقد أصبح اختراق بادية نجد شيئاً مستطاعاً حتى في أشد الشهور قيظاً .

وإلى هذه اللحظة ظلّ اقليم جبل شمّر غير مطروق إلى أن جاء «والن» نيابةً عن محمد علي باشا ليستطلع عن شمالي نجد نبأ . فاخترق صحراء «النفود» الى «الحائل» وهي العاصمة المزدهرة لجبل شمّر . ولقد أدهشته أخلاق العرب ومروءتهم وعدالة رئيسهم .

وفي سنة ١٨٦٢ زار الجوف والحائل والرياض والأحساء ، الرحالة «بلجراف» في صحبة «بركات» وهو قسيس لبناني وصل فيما بعد الى مرتبة مطران . ولقد مكنت «بلجراف» معرفته الرائقة باللغة العربية وتاريخ الجزيرة من رسم صورة حية ناطقة للحياة العربية . وهي صورة ملأى بالفتنة والروعة ، ولكنها من الناحية الجغرافية لا تعد شيئاً ، فان طغيان الخيال والاغراق في المبالغة ، جعلت رحلته أقرب الى المتعة منها الى التحقيق ، حتى ان الرحالة «دوتي» بعد خمسة عشر عاماً لم يجد أثراً لمعالم بلجراف !

ولكن «بلجراف» وجد من يدافع عنه بعد موته وهو لدكتور «هرجارت» ، وكان آخر رحالي القرن التاسع عشر «البارون نولده» الذي زار مدينة الحائل سنة ١٨٩٣ . وهو أول من مهد السبيل لروّاد القرن العشرين .